الحب

اليس من المستغرب او اقله اللافت الا يقول المسيح كلمة واحدة عن الحب الذي يحس به الرجل والمرأة احدهما نحو الآخر. كذلك لا يقول كلمة واحدة عن الجمال وليس في العهد الجديد حرف واحد عن سحر الطبيعة. واذا قال "تأملوا زنابق الحقل" فليس لذكر بهائها ولكن للاشارة الى عناية الله بها. واذا قال بعده بولس: "ايها الرجال أحبوا نساءكم" فلكي يتبعها تواً بقوله: "كما أحب المسيح الكنيسة". فليس في هذا أي تلميح عن خفقان القلوب والتجاذب. وليس تالياً في الحديث عن الزواج في الكتاب الالهي اي اشتراط لاندفاعة عاطفية فيها لهب او ما يشبه ذلك.

هناك حديث عن اشتهاء (من نظر الى امرأة ليشتهيها...). ولكن ليس أيضاً من ذكر للرغبة الجنسية في تمهيدها للزواج وكأن سبب هذا الاحجام ان الكتاب المقدس يتعامل والناس كما الناس هم. فاذا توادوا في غرام أو هيام فهذا لهم. وان لم يتوادوا ولكنهم قرروا الاقتران عن ارادة محضة يهيئ لظهورها توافق عائلتين فهذا ايضاً شأنهم. التعامل يبدأ من الزواج وفيه الاخلاص والتعاون وبذل النفس بلا اشتراط تبادل، تبذل النفس حتى الموت.

كذلك لست أرى موضعاً ينشىء فيه المسيح الزواج. قاربه على انه من الطبيعة. لاحظ الزواج قائماً فلا يحضك عليه ولا يوحي باستعفاف عزوبة دائمة ولا يضع له أحكاماً ولا يريد نفسه قاضياً فيه وفي أي مجال آخر لكنه يدلك على ما قصده الله في بدء الخليقة. يلاحظ السيد فقط انه ان كان لك امرأة فلا يسوغ لك ان تطلقها الا لعلة الزنى لئلا تجعلها تزني. بكلام آخر يريدك ان تقتلع من نفسك فكرة الافتراق وان تلازم الوحدة. هو لا يحثك على الزواج لكنه يوحي بأنك ان دخلته فينبغي لك قبل ذلك ان تتبنى شرعة الملكوت القائمة في العظة على الجبل. خارج روحية الملكوت ليس له معك حديث.

في نطاق الملكوت تكون انت وزوجك كياناً واحداً. واذا ابتغيت الوحدة أي تكامل شخصين في الله تكون قد عدت الى بدء الخليقة حيث كان خارجاً عن المعقول الالهي ان تطلق امرأتك وتتزوج بأخرى.

اما ماذا يحدث في عالم السقوط حيث الخيانات كثيرة والضرب والاهمال كثير فهذا قد يتطلب أحكاماً وقضاء. والقضاء نشأ في عالم الخطيئة. لكن هذا لا علاقة للمسيح به. صلته بك تبدأ بمحبته ورحمته تبدأ بمعصيتك. وهناك ترتيب لمصلحة العائلة والاولاد وتقويم الامة. لكن السيد لم يأت على ذكر هذا. هو لم ينشئ الزواج. ادخل اليه المحبة المسكوبة حتى الموت. هناك يكمن المسيح.

❀❀❀

ان تتزوج من بعد حب فهذا مليح. ان تتزوج من قرار عقلي او موقف حكمة فهذا يمكن ان يكون مليحاً. ان تفهم ان في الامر عهداً فهذا كل شيء لان هذا كان في البدء. هذا يعيدني الى ما قاله كيركيغور Kirkegaard ان تحب قريبك كنفسك تعني انه يجب ان تحبه كنفسك. اما فيض العاطفة وتأججها حتى السكر الصاحي ففيه لطف كبير وحلاوة طيبة. ولكن بعد هذا يأتي الحذر بحيث ان اي شيء من هذا غير مضمون البقاء ولا يتطلب الزواج بقاءه فانه يتطلب رقة وهذه شيء آخر.

لماذا الحب على سحره شيء آخر، عن الزواج؟ ذلك ان الحب يقوم على دوام السعي الى الآخر واستنفاد شعوره والاحتراق به واحياناً كثيرة – وهذا حسب الامزجة – الامحاء امامه حتى الذوبان. بعبارة اخرى الحب هو المطاردة اذ ليس فيه اكتفاء. السراب بمعنى انك لا تلتقط الاخر اساسي فيه. هنا طبعاً نتكلم عن العشق في كثافة ولا بد لنا من هذه الحدة لنفهم طبيعة الاشياء.

هذا الهوى يقوم على مبدأ هيراقليط ان "كل شيء يجري ولا يمكن ان تغتسل في النهر مرتين". هكذا يتحرك الحب فيك كل يوم ونهايته الموت او الموت رفيقه. حتى تطفىء اللهب بالزواج يجب ان تتحول طبيعة الحب لئلا تذوق الموت مرتين. لذلك قالت الاسطورة اليونانية ان الاله ابولون بعدما كان يطارد الالهة ارتميس وهي ديانا عند الرومان ادركها فلما تم له ذلك تحولت الى شجرة اي الى خشبة. اذكروا ان ارتميس الهة القنص او الصيد. يبطل الصيد بالوصول.

هكذا تأملت في حال الصيادين. يجتازون في سيارتهم مئات الكيلومترات ثم يمشون في الحقول او الغابات ساعات وساعات ليعودوا او لا يعودوا ببضعة طيور والطير يشرى بالملحمة. الصيد لا تقوم لذته على اقتناء عصافير ولكن على مجرد مطاردتها.

ليس هذا هو الزواج. يبطل فيه التحرق. تزول عبودية العشق. لا يزول تداخل الوجدان والوجدان. يقوى الاقتباس من الآخر، الانتباه المحب للآخر، خدمته، تهذيب النفس في سبيل خدمة رقيقة. يبدأ مشروعك في ابداع الحبيب وكنت قبلاً تخشى ان يتركك العاشق. فالزوج محب لانه يريد ان يضحي باناه في سبيل الآخر ولا يطلب منه الا ما تمليه عليه فضيلته. ويكتفي الزوج بما يعطى ان كان كبيراً. هو يطمع بأن ينمو الآخر ويحسن ويلطف. لذلك عندما يقول الزوج الشبق انه يريد زوجته عشيقة له فلكونه لم يدركها في الاعماق او لا يريد ذلك ليبقى في متعة الخطبة ودغدغتها.

❀❀❀

اذا كان هذا التحليل صحيحاً فهذا يبطل جذرياً قول القائلين فلنجرب المساكنة حتى اذا نجحت نحولها الى زواج. هذان وضعان يختلفان كلياً من حيث طبيعتهما. المساكنة تبقى على المطاردة واستمرار المطاردة لا يعني استمرار الزواج. وانا لست بمتكلم هنا عن الانجاب وعن كون الاولاد قد يعيشون في علاقة لذويهم معرضة لقلق الزوال. هذا عندي يبطل فلسفة الطلاق من اساسها. ما من عائلة الا بالديمومة وارادة الديمومة. غير ذلك تنظيم دنيوي قائم على واقعية الخطيئة. ولكن لم يكن هذا ما قصد في البدء.

يبقى السؤال: لماذا ينطفىء الحب أو يتحول الى بغضاء فنفور فانفصال؟ الجواب الاول انك كنت تنجذب الى بعض ما يبدو لك عناصر جذب لكنها في حقيقتها عيوب لانك لم تكن تعايش الفتاة تحت سقف واحد فاذا تجمعت هذه العيوب الصغيرة وانكشفت لك يومياً تزعجك حتى الغضب والتباعد. فالتي معك الآن ذات وجه آخر غير الذي انت عرفته. تظن انك احببت شخصاً في حين انك احببت صورة. في الزواج تغنى الصورة وينجلي الواقع الذي كثيراً ما كان مراً.

ما من شك ان الحب حصيلة حضارية كبرى. هو لم يوجد في كل الحضارات وله تاريخ متصل بالشعر والشعراء الى حد كبير. فان وجد واستمر على رغم تحوله الى رقة وفقدان لهبه القتّال يكون الزواج على شيء من المتانة الطبيعية ويسلس اذا كان مقروناً بالخُلق أي بالمحبة المعطاء. لقد سمعت عن التمييز بين الحب والمحبة. اتخذ القصد من هذا وان لم يكن مؤسساً لغةً. التمييز المعروف في اللغة اليونانية هو بين العشق والمحبة بالمعنى الذي كشفه وتوسع به يسوع الناصري. اجل يحلو كثيراً ان يكون الزوجان قلباً واحداً وان يستمر في كل منهما شيء من العروس (تصح للمذكر والمؤنث بالعربية). وهذا يدل على غنى من العاطفة كبير. ولكن ليس من الضرر بشيء ان ينطفىء بعض من هذا اللهب الاول في الحياة المشتركة بما فيها من صعاب وفي التضحيات اليومية وتربية الاولاد. اللهب، اذ ذاك، تتأكله الفضيلة. عندي انه لا أجمل من ذلك. واذا دام الحب الاول يقوى بالميثاق. لكن طبيعة الميثاق ان يكون مجانياً، نازلاً في قلبك من قلب الله.

لذلك لم يفهم شيئاً من طبيعة الزواج من قال انه يطلق او يسعى الى الانفصال لكون حبه قد بطل. الواقع ان انساناً كهذا لم يخرج من المراهقة التي تدفعنا من وجه الى وجه. لم ينفصل عن اناه فلم يلتقِ عميقاً الآخر. انت عاهدت في طاعة لله على المصلوبية. كل ما عدا الميثاق الزوجي شهوة مؤذية تذهب بك وبرفيقك والعائلة الى الدمار. انا لا ادلي هنا بيقيني الروحي فقط. لا اؤدي شهادة فحسب. هذا ما نشاهده كل يوم. الازمة ليست ازمة العائلة. انها ازمة غياب الله عن العشق والحب والعقل. عندما ينكسر العهد تكون كلمة الله قد اندثرت فيك وصرت قبض العاصفة.

المطران جورج خضر